بين حرب لبنان وحرب الجزائر

بقلم غسان سلامة

دخل الجزائريون رمضان، ودخلت بلادهم سنة سادسة من الحرب الداخلية الطاحنة. ومن اكتوى، مثلنا نحن اللبنانيين، بنار الاقتتال الطويل، يقف امام حمّام الدم الجزائري مصعوقا، حتى لو كانت ذاكرته ما زالت ملأى بضجيج المدافع ورعب السيارات المفخخة. فهو سيجد، ولا شك، التناقض الذي ذقنا بين واقع الاجرام اليومي وأمل الخروج من النفق. وسيتوقف ايضا امام عدد الضحايا الكبير والمتعاظم: فالجزائر فقدت في الاعوام الخمسة الماضية اكثر من ستين الفا من مواطنيها جراء الاقتتال الدامي، حتى أمست في المراتب الاولى من الدول المنخرطة في دوامات الانتحار الجماعي، متجاوزة باصرار حصاد الموت في البوسنة وطاجكستان والقفقاس، مقتربة من رصيد الاقتتال اللبناني، ومثيرة للخوف العميق ان تمسي الجزائر يوما نوعا من رواندا القيت على ضفاف المتوسط.

لكن التشابه في هذا السباق المحموم نحو القتل والموت لا يخفي الا قليلا فروقات كبرى تميز الحالة الجزائرية عن سواها من دورات العنف الطويلة. فالفظاعة الحيوانية في القتل التي كانت في حربنا اللبنانية ظاهرة هامشية، تثير الرعب لفترة، هي الخبز اليومي في الاقتتال الجزائري: من ذبح عشوائي للنساء والاطفال، وبقْرٍ للبطون، وعقاب جماعي للدساكر والقرى. وكأن التفظيع في القمع الرسمي صورة من صور الحكم، وكأنه في ممارسة المعارضة ينم عن رغبة في كسر حاجز التعتيم الرسمي على ما هو

– التتمة في الصفحة ١٦ –

◄ بين حرب لبنان وحرب الجزائر

– تتمة المنشور في الصفحة ١ –

حاصل حتى بدا العنف الاعتيادي وكأنه لم يعد عنفا يذكر، وكأن الفظاعة وحدها جديرة بأن تستحق اهتماما.

والفارق الجوهري الثاني تجده في تلك الانطوائية المثيرة للرهبة. فاللبنانيون خاضوا حربهم كأنهم على مسرح مفتوح دعوا لحضوره صحافيي العالم ومراسليه وكاميراته في احتفال استعراضي اعتاده اللبنانيون ايام السلم واستمروا عليه زمان الاقتتال. فهم كانوا يستقوون بالخارج على شريكهم في الوطن، ويعرضون على الخارج عضلاتهم وترسانتهم وصفوف مقاتليهم وكأنهم لا يجدون في تقاتلهم الممسرح لذة ان لم يكن له حضور واسع من المشاهدين الخارجيين، ومن الشهود. بل ان كلاً من زعماء الحرب راح يصرح ويوزع المقابلات والصور، بل راح ينشئ لنفسه ولجماعته الصحف والاذاعات والتلفزيونات ليستعرض امام محازبيه وفي وجه خصومه وامام نظر الخارج، قوة كانت دوما لها صفة الاستعراض والكنفشة. وكأن اللبنانيين الذين عودوا القاصي والداني استعراض مالهم وثرواتهم وسياراتهم الفارهة وفيلاتهم الكبيرة، بقوا على عادتهم ايام الحرب حين راحوا يستعرضون جيباتهم وكلاشنيكوفاتهم وميليشياتهم والانتينات الملوّحة على سياراتهم.

لذا كانت حروب اللبنانيين تستثير مزيجا من الشفقة والسخرية عند كبار العقول: شفقة على الضحايا واشمئزاز من أمراء الحرب الذين تحولوا بسرعة مذهلة أثرياءها. حرب الجزائر، على العكس، تستثير الرهبة، الرهبة النابعة من المأساة المطلقة، مأساة انطواء الفرد على ذاته، والشعب على نوازعه ومواجسه. فالتواصل الحقيقي مع الخارج مقطوع، وافرقاء الحرب الجزائرية لا يتوسلون اهتماما ولا يهتمون لشهود ومشاهدين. انهم في انعزال مقصود لا بسبب سياسة التعتيم الحكومية على ما هو جار وحسب، بل لميل اعمق يرفض اساسا ان يكون للغير علم او رأي او دراية او حتى امكان متابعة لما هو حاصل داخل الحدود. فالجزائريون الذين فازوا باستقلالهم بعد حرب تحرير ضروس جعلوا الوطنية نوعا من الشوفينية التي تأنف التحدث عن الذات وتلهي المخاطب بالامور العامة الاخرى، مذكّرة أصدقاء الجزائر ومحبيها قبل اعدائها ومنافسيها بأن لا حق لهم في ان ينظروا في الداخل الجواني لبلادهم ولا حتى ان يسألوا أهلها عنه.

انه في الاساس نوع من الخفر الوطني الذي قد تجد مثالا له في مصر او سوريا او السعودية، حيث يتجنب الناس الحديث عن اوضاع بلدانهم الداخلية لا خوفا من اتهام السلطة لهم فحسب بل لنوع من الحذر، بل من العازل التقليدي السميك بين ما هو الجواني وما هو الخارجي، وهو فارق عميق الجذور في التراث، تبوح به العمارة العربية المنطوية على ذاتها، وتفضحه المفردات المبهمة العمومية التي يلجأ اليها المرء عندما يتحدث، كالمضطر لذلك، عن اهله والدار والعيال. كثيرون في العرب يسحبون هذا الخفر من البيت والدار للوطن، فيأنفون اظهار الداخل امام الضيف، وحتى امام الصديق. والجزائريون حولوا هذا الخفر نوعا من الهواية الوطنية التي تجعلهم ينظرون بعين الريبة والشك الى أي محاولة، مهما كان مصدرها، لفهم ما هو حاصل لهم.

كانت هذه الانطوائية الجزائرية سميكة للغاية أيام اللمعان الدولي. كانت الجزائر في كل الجبهات: النفط، وتحرر افريقيا، والصراع العربي – الاسرائيلي، ناهيك بعدم الانحياز وصياغة نظام دولي جديد أكثر عدلا. كانت الجزائر نشطة على كل الجبهات الخارجية، وكان لديبلوماسيتها اكثر من نجاح وتوفيق. لكن هذا النشاط الخارجي كان يترافق مع نفي تام لوجود "داخل" ما، وكانت احداث الجزائر تثير دائما الاندهاش بسبب سماكة السور المعرفي الذي بنته من حولها. ولما دخلت البلاد عصر التناحر الدموي بقيت هذه الانطوائية على حالها بل يبدو انها ازدادت حدة، بحيث اصبح الانطواء هو المسلك الطبيعي للمؤسسات الرسمية، وللجماعات المسلحة وللأحزاب بل للعائلات والمناطق. لذا كان يمكن تشبيه الحرب اللبنانية بالتراجي – كوميديا الدائرة على خشبة منفتحة نحو الآخرين بينما الحرب الجزائرية تراجيديا اغريقية بالمعنى الحرفي: صراع مأسوي بين الذات والذات، منعزلة عن الجوار، تسير نحو نهايتها الدامية في فضاء مقفل تماما.

اما الفارق الثالث بين حرب لبنان (والبوسنة وفلسطين) وحرب الجزائر فهو في عقم الخطاب السياسي. فقط من لا يعرفون الجزائر او لا يحبونها فوجئوا برئيسها يخطب بالامس ولا يقول شيئا، اذ ان اليمين زروال لم ينبس بمقترح واحد للخروج من المعضلة التي تعرفها بلاده رغم تسارع دورة العنف منذ اسابيع عديدة وخصوصا منذ اول الشهر الحرام. الحروب الاخرى، وحربنا بالذات، انتجت خطابات سياسية متنافرة ومتناحرة كانت جزءا من وقود الحرب (ويقلقني تواترها حتى اليوم). الحرب الجزائرية صامتة والكلام ليس من اسلحتها. فالسلطة في الاساس عسكرية، والعسكر لا يتكلمون كثيرا، وعسكر الجزائر لا يتكلم ابدا. أما اصناف المعارضة المسلحة فانها تنتج خطابا مليئا بالمفردات الدينية والآيات القرآنية التي يصعب على الفقيه المتفحص ربطها بالواقع السياسي الذي صدرت في سياقه او لتفسيره او لتبريره، فما بالك بالمراقب الخارجي. أما الاحزاب المسماة "علمانية" فانها تصدر بيانات ومواقف لها علاقة أكبر بما يمكن اعتباره خطابا سياسيا ولكنه كلام يبقى مجتزأ من واقع يدرك المرء بحسه انه أشد تعقيدا مما يقال ويُكتب. بقي الناس، الناس العاديون، الذين يتمكن الانسان احيانا من التحادث معهم، ليفاجأ بأن لهم إزاء ما حل بهم من مآس صرخة صمّاء تتوقف فورا بعد صدورها، وما من كلام منطقي.

مأساة الجزائر صامتة، تتخللها احداث يقشعر لها البدن، ولكنها لا تحكي عن حالها. وينسحب صمت الجزائريين على غيرهم. في اجتماع واسع لعدد من اعيان الرأي عُقد قبل زمن في عاصمة عربية، امتد الحديث يومين او ثلاثة وكاد ان ينفضّ دون ان يذكر واحد من المجتمعين الخمسين كلمة عن الجزائر، رغم كونها أكبر المآسي العربية الراهنة على الاطلاق وبكل المعايير. وأمس صدرت الصحف الفرنسية بعناوين تتساءل عن صمت الفرنسيين، من صنّاع قرار وصنّاع رأي، عما هو حاصل في بلد يدرك الفرنسيون أهمية تحولاته عليهم ديموغرافيا وسياسيا واقتصاديا: فلا المثقفون العرب قادرون على الفتوى السياسية السريعة التي اعتادوها ولا الغربيون يعرفون الجزم في موضوع الجزائر. فصمت الجزائر هو صمت المقابر، واذا تأنف أهل البلاد عن خرقه فما بالك بالآخرين!

* * *

ليس من تفسير واحد طبعا لحرب الجزائر، ولا لأي حرب أخرى. والعناصر الاعتيادية التي يبحث المرء عنها في جذور اي حرب موجودة في الجزائر، ولكنها موجودة ايضا في بلدان اخرى استطاعت تجنب هذه المأساة. صحيح ان البلاد عرفت فورة ديموغرافية هائلة بحيث كان عدد سكانها عند الاستقلال عام ١٩٦٢ سبعة ملايين وأصبحوا اليوم في حدود الثلاثين مليونا. صحيح ايضا ان ربع القوى العاملة ضحية البطالة وفق الارقام الرسمية، وأكثر من الثلث وفق تقديرات الخبراء. صحيح ايضا ان الجزائر استثمرت في قاعدتها الانتاجية من دون انتباه كاف للحاجات الاجتماعية الملحة، اذ ينقصها اليوم اكثر من ١,٥ مليون مسكن. وتكتظ المدارس بالطلاب، والطرق بقيت احيانا على الحال التي تركها الفرنسيون فيها عندما غادروا. صحيح ايضا ان الجزائر تعرف، مثل دول العالم الثالث الكثيرة، مستويات مرتفعة من الاختلاس الواسع لأموال الدولة قدرها رئيس سابق للوزراء بـ ٢٣ مليار دولار بين ١٩٦٢ و١٩٨٨، وعوقب الرجل على مقولته منذ ذلك الحين بالنفي. صحيح ان في الجزائر عددا من الاقليات الاثنية او اللغوية او الطائفية، ولكن الأكثرية الساحقة من دول العالم فيها اقليات من نوع او من آخر. صحيح ان الجزائر تعتبر نفسها من دول العالم الثالث، ولكنها دولة تحظى في الواقع بثروات هائلة من النفط والغاز، وفيها مناطق ريفية أخاذة الجمال، عظيمة الانتاج الزراعي. بل يقف المرء مدهوشا امام تزايد العنف وتعاظم الفظاعات في الوقت الذي تخرج فيه البلاد من مرحلة اقتصادية صعبة نحو مرحلة من الرفاهية الممكنة التي يحسدها عليها أكثر من بلد: فأسعار النفط قفزت ١٥ في المئة العام الماضي، والجزائر ستصبح قبل نهاية السنة من كبريات الدول المصدرة للغاز عبر بناء انبوبين جديدين نحو اوروبا. بل ان انتاج الجزائر الزراعي فاق هذه السنة كل التوقعات خصوصا في مجال الحبوب والحمضيات.

لذا عندما يردد "الخبراء" هذه المعطيات لا يقنعون أحدا، لأن الجزائر ملأى بالنخب المتعلمة وبالثروات الطبيعية وبالامكانات التي لم تعطّ كثيرا من بلدان المنطقة و العالم. وعندما يشيرون الى تلك المشكلة او ذلك النقص، فهم يتناسون حجم المشكلات مقارنة بدول المغرب او العالم العربي. انها تفسيرات في الغالب سطحية لانها تجانب أمرين خاصين بالجزائر. اولهما البعد الثقافي، فالاستعمار دمّر هوية البلاد والاستقلال لم يجرؤ يوما على فتح هذا الملف بما يستحق من الجدية والديموقراطية. فأي حل للمشكل الثقافي كان حتى اليوم عبارة عن التنازع السياسي فبدلا من ان تكون الثقافة الفرنسية مدخلا مفيدا نحو الحداثة اصبحت شعارا لحزب ضد أحزاب، واستمرارا لهيمنة نخب معينة على حساب أخرى. وبدلا من ان يكون التعريب استعادة لثقافة وطنية جريحة، تحول الى سلاح فتاك بيد مؤسسات ضد اخرى وسيفا مصلتا فوق رأس الاقليات البربرية، النشطة اقتصاديا، والواسعة الوجود في الادارة. وبدلا من ان يجمع الدين الواحد أبناء الجزائر على رابطة، تحول وقودا حزبيا في النزاع الداخلي. بذا لم تحلّ عقود الاستقلال معضلة تركها الاستعمار، بل فاقمت سياسة أهل الاستقلال من حدته وجعلت فصله عن الصراع على السلطة امرا شبه مستحيل. فاللغة والدين والاصول الجغرافية والتراث لاطائفي وتحديد الوطن والأمة كلها أمور رأت السلطة الاستقلالية ان معالجتها تكون بمراسيم فوقية، ثوابا لمؤلاء وعقابا لأولئك، حتى استأثرت الفئات المتناحرة بالمعطيات الثقافية: هذه بالدين وتلك بلغة، وثالثة بعصبية مناطقية، وحولتها الى وقود حرب ضارية، وهي حرب من الذات على الذات، تبعث زمنيا تناتشا فئويا عنيفا لعناصر الهوية الوطنية التي اكتفى الحكام بربطها سطحيا بتذكار عقيم لاعوام التحرير المجيدة، قاعدة وحيدة لشرعية السلطة، بينما جلّ أبناء الجزائر ولدوا بعد ١٩٦٢ ولا يذكرون من حروب التحرير شيئا بل سئموا تماما ذكراها.

أما المعضلة الثانية فهي في السياسة، وقد حولها أهل الاستقلال أمرين: سلطة عسكرية في القلب وتنفيذا تقنوقراطيا على الهوامش. حكم مزيج العسكر والتقنوقراط الجزائر لفترة مستفيدين من ذكرى التحرير ومن الوعد بمستقبل آخر يجعل من الجزائر "يابان العرب". ولكن هذا اللعب الدائم على الماضي (العسكر) وعلى المستقبل (التقنوقراط) ألفى الحاضر تماما وقت كان الشباب الجزائري ينسى الاستعمار وأيامه، ولا يرى للمستقبل بدءاً. فهو مشدود الى الحاضر، اي الى السياسة، ولكن حكام الاستقلال ما كانوا مستعدين لفتح صفحة الحاضر السياسي، اي للقبول بالمشاركة في الحكم. فتوالت عمليات الاختطاف: خطف الاسلاميون العملية الانتخابية عندما قبل العسكر باجرائها، فما كان من العسكر الا ان خطفوا بدورهم نتيجة الانتخابات عندما هددت بانهاء سيطرتهم. وما زال الخطف المتبادل جاريا، ينتقل من المدن الى الريف ومن منطقة الى أخرى بدون ان يسأل أحد عن حل حقيقي للمعضلة الثقافية، وبدون ان يتمكن الجزائريون من بناء جماعة سياسية ومؤسسات تحتضن خلافاتهم المستحكمة، وتجد لها حلا مدنيا يتجاوز طرفي الصراع الاساسيين، وكلاهما يخشى الحلول المدنية: العسكر من جانب والأصوليون من آخر.

غسان سلامة

١٩٩٧/١/٢٨